# السنة الأولى ماستر

**التخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519-1830**

# المقياس: العلاقات الجزائرية الأوربية 1

# المحور الأول: الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية

# 1- دوافع الغزو الأسباني على السواحل الجزائرية

**أ.د. عبد القادر فكاير**

#  إن أسباب الاحتلال الإسباني لسواحل المغرب الأوسط تتمحور حول أسباب دينية واقتصادية واستراتيجية وعسكرية ، إلى جانب طبيعة بعض الشخصيات السياسية والدينية في أسبانيا التي كانت تنزع إلى سياسة الغزو، وأعمال القرصنة أو غيرها ، هذا ما سنبينه فيما يلي :

 **1 ـ الدافع الديني** :

 لقد ظل الحقد الصليبـي الدفين ، حيّا في نفوس الكثير من رجال السلطة الدينية والدنيوية ، منذ الحروب الصليبية في المشرق ، لينتقل إلى بلاد المغرب ؛ انطلاقا من إسبانيا ، وقد ركز كل مؤرخي الكاردينال خيمسنيس على الأسباب الدينية للمشاريع الأسبانيةفي بسط نفوذها على السواحل الإفريقية المقابلة لها. فأصبحت أسبانيا تعتبر نفسها تمثل العالم المسيحي بعد ما تمكنت من القضاء على الوجود الإسلامي في شبه جزيرة أيبيريا ، وإثر ذلك أخذت تنشط في هذا السبيل لبسط نفوذها ، والتوسع على حساب الممالك المغربية . فكان للتعصب الديني ، والرغبة في وقف المـد الإسلامي في الـقارة الأوربية، منذ أواخر القرن الخامس عشر وطوال القرن السادس عشر ، دفعت الأسبان إلى الزحف إلى البلاد الإسلامية في شمال إفريقيا . فلم يكن للأسبان طموح آخر سوى نقل الحرب ـ التي كانت تجري على أراضيهم لعدة سنوات ـ إلى بلاد الممالك المغربية ، والسعي من وراء ذلك إلى الحصول بقوة السلاح على هذه البلاد .

 لقد أصدرت البابوية في سنتي 1493 و1494 أمران بابويين في عهد البابا الكسندر السادس ، تتعلق بالحرب الصليبية الإفريقية المباركة ، ومنحها عبارات الطموح ، كان من بينها الأمر البابوي الصادر في سنة 1494 ، الذي بارك فيه الحرب الصليبية بإفريقيا ، وطلب من جميع المسيحيين أن يدفـعوا ضـريبة "الكروزاد" (Crusada) لصالح الملوك الكاثوليك الأسبان.

 اتجه الزعماء الإسبان إلى العمل على توفير مصادر تـمويلها ، واجتهدوا في تحصيل الجباية المقترنة بالبابوية ، إذ بعد موافقة هذه الهيئة المسيحية في روما ، شرعوا في تحصيل هذه الضريبة . وكان الزعماء الأسبان يعملون على القيام بوظائفهم كملوك كاثوليك حيث أن كل مراسلاتهم المتعلقة بالشؤون الإفريقية تشير بشكل واضح إلى الـطابع الديني لسياستهم. جندوا عددا من الجواسيس ، فقد تررد على سواحل المغرب الأقصى كل من لورينثو دي ثافرا(Lorenzo de Zafra) وليثكانو(Lezcano) **،** وتغلغل في مملكة تلمسان لورينثو دي باديا( Lorenzo de Padilla).

 **2 ـ الدافع الاقتصادي :**

#  لقد تعرضت أسبانيا إلى انهيار اقتصادي رهيب بعد طرد المسلمين واليهود من أراضيها ، الذين كانوا يشكلون العمود الفقري لاقتصاد بلاد الأندلس ، وبذهابهم تعطل الإنتاج وغابت وسائل التصنيع ، فتوجه زعماء هذا البلد إلى اكتساح بلاد المغرب ، وعلى وجه الخصوص المغرب الأوسط ، كإجراء وقائي وسلوك يراد منه الرغبة في وضع حد لهذه الأزمة الخانقة ، وذلك عن طريق الاستفادة من موارده المتنوعة التي لا تنضب.

 ومما لا شك فيه أن المغرب الإسلامي كان يتوفر على خيرات لم تكن موجودة في أية دولة في أوربا حتى عصر الكشوفات الجغرافية ، وكان التجار الأوربيون يجوبون كثيرا أراضي بلاد المغرب ، وخاصة منها المدن الساحلية مثل مراكش وآسفي وهران وتونس ، وغيرها من المدن الأخرى . وكان لهؤلاء التجار اهتمامات كبيرة بالوضع الإقتصادي الداخلي ، فأخذوا يدرسونه بعناية ودقة ويكتبون تقارير ثم يرسلونها إلى حكوماتهم . وكان بعضهم يرغب الملوك في ذلك الوقت باحتلال أطراف من هذه البلاد.

 ووكان الإسبان يسعون إلى تأمين سفنهم من خطر البحارة المسلين الذين كانوا يجوبون أطراف البحر المتوسط . فمن وراء تلك الحملات ، كان الأسبان يهدفون إلى حماية طرق مواصلاتهم مع جزيرة صقلية ، التي كانت تزودهم بالحبوب .

 **4 ـ الرغبة في فرض السيادة على البحر (القرصنة)** :

 إن قضية المواجهة بين المسلمين والمسيحيين في البحر المتوسط قديمة ، ومن دون شك تعود جذورها إلى أعقاب الحروب الصليبية .

 وقد أصبحت هذه المواجهة تدعى في القرن الخامس عشر بعبارة القرصنة ، وقد ازدادت شدتها منذ امتداد النفوذ العثماني في البحر المتوسط . علما بأن كلمة قرصنة دخيلة على اللغة العربية ، إذ لا تحتوي هذه اللغة على مرادف لها ، وإنما أدخلت في القرن الخامس عشر إلى العربية من عبارة كورسة(Corsa) الإيطالية، ومعناها الجري. وكان النشاط البحري في بلاد المغرب الأوسط نابعا من الدفاع عن المدن الإسلامية ، انطلاقا من بجاية ووهران ، ضد الخطر الأسباني ، وبالتالي الحصول على الغنائم . كما كان لذلك النشاط البحري الإسلامي نابعا من ضرورة مساعدة إخوانهم الأندلسيين ونقلهم إلى أراضيهم ، وقد اشتهر بهذا العمل الأخوان عروج وخير الدين ، الذين لجآ إلى جيجل ، بعد طرد الجنويين منها ، والتحق بهما أكثر من 20 ألف من السكان المحليين وقدموا لهم خدماتهم. ولما أصبحا يحظيان بالعناية العثمانية ، أخذت أسبانيا تنظم هجماتها على السواحل المغربية ، مما أدى إلى صدام مباشر بين الجزائر وأسبانيا طوال ثلاثة قرون.

 **5 ـ تنافس أسبانيا مع البرتغال :**

 ظهر البلدان أسبانيا والبرتغال ضمن مرحلة التغير الذي شهدته القارة الأوربية ببروز الكيانات السياسية والدول القومية الحديثة في أوربا ، ورغبتهما في التوسّع، وتحقيق الأمـجاد خارج القارة العتيقة . سواء بالتوجّه نحو المناطق المجهولة ، الذي أدّى إلى اكتشاف ـ ما سمّي ـ بالعالم الجديد (قارة أمريكا) ، أو نحو العالم القديم والمتمثل في قارتي إفريقيا وآسيا .

 فقد كان لحركة الكشوفات الجغرافية التي استهلتها البرتغال ومعها أسبانيا قد أدت إلى دخول البلدين في صراع وتنافس في هذا المجال . وقد أدت هذه الحركة إلى تغيير الطرق التجارية التقليدية ، وتراجع القوى التجارية التي كانت تهيمن على القوى التجارية في البحر المتوسط ، والمتمثلة في المدن الإيطالية ، على رأسها مدينتا جنوة والبندقية . كما دفعت تلك الحركة ببعض الأمم الأوربية ، وفي طليعتها البرتغال وأسبانيا ، إلى البحث عن مناطق نفوذ خارج القارة العتيقة ، فكانت سواحل إفريقيا الشمالية والغربية هدفا لطموح هذين البلدين.

  **6 ـ** **رغبة الأسبان في التوسع الاستعماري**:

 لقد اتجه الأسبان بعد سقوط غرناطة إلى سياسة توسعية تتعلق بانتهاج سياسة استعمارية في إفريقيا ، تنطلق أولا من المناطق الساحلية ، ثم التوغل فيما بعد إلى الجهات الداخلية . وقد تحدثت بعض الكتابات الأوربية في هذا السياق أن هدف الكاردينال خيمينيس ليس العزم على احتلال وهران كهدف نهائي ، ولكنها وسيلة للتوغل والانطلاق من أجل احتلال كل إفريقيا . إذ بعد ثلاثة أيام من احتلال وهران كتب الكاردينال خيمينيس لزعماء بلاده يدعوهم إلى إرسال الـمزيد من الأسبانيين . كما طلب من السلطات العسكرية البقاء ، والشروع في تنفيذ المخطط الاستعماري للأرض الإفريقية . وفي هذا السياق ، أرسل الملك فيرديناند الكاثوليكي خطابا إلى بيدرو نافارو في شهر ماي من سنة 1510، يدعوه فيه ، أن عليه ألا يترك أحدا من سكان المدن التي يحتلها في شمال إفريقيا ، وذلك من أجل إعمارها مستقبلا بالمسيحيين فقط ، وإلا فإنه من المستحيل عليه الاحتفاظ بها لمدة طويلة. لكن فيرديناند والذين تلوه من الملوك الأسبان لم يفلحوا في تطبيق هذه السياسة ، لأنهم لم يرضوا التخلي عن الدور الذي كانوا يمارسونه في إيطاليا وكذلك في ألمانيا محتفظين بكل قدراتهم المالية والعسكرية من أجل الحروب الأوربية.

 لقد دفع الحرص الشدّيد ؛ لهؤلاء الملوك على غزو السواحل الإفريقية ، إلى الإسراع لتنفيذ مخططهم ، ولكن موت الملكة إيزابيلا المفاجئ سنة 1504 ، قد أخّر تنفيذ العدوان إلى وقت لاحق ، وتحقيق وصية الملكة وأمنيتها المشهورة التي تدعو إلى غزو إفريقيا**.**

 **7 ـ دافع انتقامي :**

 إن أغلب الكتابات الأوربية تعتبر الحملات الأسبانية على السواحل المغربية ، بمثابة رد فعل عن اعتداءات التجار المغاربة على السواحل الإسبانية ، وحصرها في هذا المجال، لأن تلك السواحل ـ حسب رأيهم ـ كانت تستقبل سفنا محملة بالبضائع ،وهي قادمة من قارة أمريكا ، فتكون معرضة حسب رأيهم لخطرهؤلاء البحارة. وفي هذا السياق فإن سبب في احتلال مدينة المرسى الكبير وهران حسب ما أوردته الوثائق الأسبانية، كان ردا على الحملات التي كانت تقوم بها السفن الإسلامية ضد السواحل الأسباينة من أجل تحرير المهاجرين الأندلسيين من الاضطهاد، والذين تعرضوا له من قبل رجال الكنيسة بعد سقوط مدينة غرناطة عاصمة بني الأحمر .ولهذا فقد اعتبر ''مونتنيس'' أن الغزو الأسباني لبلدة المرسى الكبير سنة 1505 ؛ كان مسبوقا بعمليات بحرية قام بها سكان هذه البلدة ضد المدن الساحلية والجزر الإسبانية.